تعريف بالكتاب

هذا هو الكتاب الرابع فى هذه المجموعة ، والكتاب الأول هو المسرحية الاغريقية « ليزستراتا » التى كتبها الشاعر الساخر اريستوفان .

مضى بين تأليف ليزستراتا وتأليف تمبرلين نحو تسعة عشر قرنا من تاريخ القارة الأوربية وتاريخ الانسانية .

وقد اشتملت المسرحية الأولى على دعـــوة سلمية صـــارخة ، واشتملت المسرحية الأخيرة ـ بعد تســـعة عشر قرنا ـ على موكب حاشـــد متتابع من أفخم مواكب التمجيد التى يتغنى فيها الشـــعر بركاب الفاتحين المغيرين ... فهل هى نكسة فى حياة الجنس البشرى رجعت به الى الوراء بعد عصر النهضة وعصر النور ، كما ســـميناهما فى التاريخ الحديث ؟

ان النظرة العاجلة تقول لنا انها نكسة مخيبة للآمال .

ولكن دراسة الأدب فى كل أثر من آثاره وسيلة حسنة ـ بل وسيلة ضرورية ـ لتصحيح النظر الى تاريخ التقدم الانسانى فى جملته : ومنه تاريخ الثقافة العالمية على التعميم .

فمن تاريخ التقدم الانسانى نعلم أن هذا النوع البشرى يغنم فتوحه الفكرية والنفسية فى معارك كثيرة متفرقة ولا يغنمها دفعة واحدة على خط واحد ... ونعلم كذلك أن الثقافة العالمية « عملية » متجاوبة بين الأمم ، وتعيد فى أمة غربية ما بدأته قبل آلاف السنين فى أمة شرقية لم تتصل بها أقل اتصال فى ذلك الحين ، وتستأنف التجربة كرة بعد كرة من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق ، الى أجلها المقدور ..

وانما تبلغ أجلها المقدور يوم تشترك الأمم جميعا فى تلك التجـــربة ولا تنفرد بها أمة معزولة فى وقت محدود .

ان مارلو قد ألف مسرحيته يوم وضع الغرب فى القارة الأوربية قدميه على أول خطوة من خطواته القوية فى طريقيه الطويلين : طريق الى حضارته بين الأمم التى لم تكن لها حضارة قبل ذلك ، وطريق الى تدويل الدول واقامة العروش ، وكأنه كان بذلك يستأنف طريق الأمم الشرقية ويستأنف معها طريق الدول الشرقية ، ومنها ــ بالنظر الى أوربة الغربية ــ شرق الرومان وشرق اليونان .

فرغ الغرب من جولاته مع الشرق فى الحروب الصليبية وفى حروب الجزيرة الأندلسية ولكنه لبث بعد ذلك حقبة طويلة يستقبل شـــبح الشرق ويستخبر تاريخه القديم وحاضره المشهود ، وينظر الى مطلع الحضارة حيثما بقيت للشرق حضارة مذكورة فى ربوع الأندلس وربوع صقلية ، لأنهما المعقل الأخير للشرق العربى والمعقل الأول للدول القائمة فى القارة الناشئة .

كانت السيرة التى اقتبس منها مارلو مسرحيته كتابا منقولا عن اللغة الأسبانية مع كثير من الكتب التى نقلت عن لغة الأسبان بعد ظهور دولتهم فى أعقاب الدولة العربية .

وكان أبطال الرواية كلهم من بناة الدول وأقطابها فى بلاد الفرس والترك والمصريين والشيشيين ، ولم يكن للتاريخ الصحيح نصيب من سير هؤلاء الأبطال والأقطاب ولكنهم كانوا جميعا بعض صور الشرق كما يتصورها الفنان الغربى من بعيد ، أو كما يحلم بها وهو يزخرفها للحالمين بالفتوح والعروش .

ولم تكن لمارلو سخرية أريستوفان ، ولا كان المسرح الغربى يحتاج الى السخرية فى خطواته الأولى الى تحضير الحضارة وتدويل الدول . بل يقال ان المناظر الفكاهية فى بعض رواياته لم تكن من وحى قلمه ، ولم تجر على أسلوب نظمه ، ولكنها أضيفت اليها بأقلام بعض زمـــلائه

بعد وفاته ، فلم يستطع أن ينفذ الى أضاحيك السخف من وراء مواكب الأبهة والبذخ كما نفذ اليها اريستوفان . وراعته هالات النصر فلم يأبه لما يصحبها من جوائح القتل والدمار ، كأنما هى الذنوب التى تغتفر فى كل غرام ، أو العيوب التى تنتظر من كل محبوب ، ولعله لم ينظر يومئذ الى فتوح تيمور وبايزيد ، وانما نظر الى الدولة التى تتربع على عروش الجزر البريطانية وما ينبسط حولها من رحاب الأرض ومتون البحار ، ولم يكن حولها غير عروش تقام ودول تغامر فى الزحـــام ، من أقصى شواطىء السويد الى صـــخرة طارق على شواطىء « بحرنا » ــ كما سماه الأسبان ومن قبلهم الرومان .

واذا نظرنا الى مزاج الشاعر كما نظرنا الى مزاج زميله الاغريقى فما بينهما من خلاف ، انما هو الخلاف بين مؤلف الدرامة فى ابان حروب الفتح والتأسيس ، وبين مؤلف الملهاة فى أعقاب تلك الحروب من تاريخ الشعوب الاغريقية ، ولا تقوم الدرامة على غير معركة تجل أبطـــال الحرب كما تجل الحروب التى تبرز للناس بطولة الأبطال ، ولكن الملهاة قد تقوم على النزول بالجلال الفخم الى منازل السخرية والاستخفاف ، وليس بين الجليل والمضحك غير لفتة واحدة ، كما قيل !

ولقد كان مارلو ــ كما يفهم من خلال سطوره ــ جنديا يغـــامر فى ميادين الحرب ويظن مترجموه أنه شهدها فى بلاد الأرض الواطئة ، ولم يمت فى ساحة حرب كما هو معلوم ، ولكنه مات فى ساحة حرب صغيرة ، ان حسبت المشاجرات الدامية فى عداد الحروب .

عاش سنواته القصار فى عصر الملكة اليصابات ، وهو على ديدن أبناء العصر كله ــ كما قال الأستاذ بنتلى فى الحوار التالى ــ يشعر معهم « بدوامة الطموح الذى لايحد ؛ ويحس شباب الدنيـــا والأنتصـــار وما يصحبه من الاحساس بالقسوة ، وكانوا أكثر الشعوب حبا للجمال وهم فى الوقت ذاته أكثر الشعوب قسوة اذا قرنوا بالشـــعوب التى أوجدها العالم الغربى فى وقت ما » .

ولا يحق لنا أن نحكم على مارلو فى قضية التقدم الانسانى نحو السلام وهو فى أول الشوط الذى استأنف فيه الغرب طريق الأولين الأسبقين ، ولكننا أحرياء أن ننتظر به الى نهاية الشوط بضعة قرون ، فلا يبعد أن تكون له فى تلك النهاية قصة غير قصة تمبرلين . وأن يكون واحدا من أولئك الشعراء والأدباء الذين يطوفون فى هـذه الأيام على شواكل الطرقات ، ليحطموا سلاح الذرة المحطومة ، ويقذفوا بقذيفة الهلاك من أيدى العلماء المجربين ، قبل أن يقذفوا بها من أيدى القادة المقـاتلين .

* * *

ان كل قطعة من قطع الأدب المطبوع هى فصل صـغير فى تاريخ الحياة الانسانية يظهر ما هو ظاهر لنا فى حينه ويطوى من دونه خفايا ذلك التاريخ من قريب أو بعيد . وكل قيمة أدبية هى فى النهاية قيمة انسانية تمثل لنا حياة هذا النوع البشرى برموز الكتابة ولو لم تجاوز حدود الفن الجميل ولم يحدث فيها من أثر غير الآثار التى تحتويها الصفحات من تبديل وزن بوزن ، أو صيغة بصيغة ، أو ترتيب بترتيب.

ونحسب أن شعراء الغرب لم يرفعوا أبصارهم عن قبلتهم الشرقية وهم يستحدثون الجديد فى فن الدرامة وفن النشيد .

فالنهضة التاريخية هى التى أحيت فن الدرامة ، ولكن الدرامة ـ بفخامتها التى لا يناسبها نمط من الشعر غير نمط الروعة والايقاع ـ هى التى نقلت الشعر من أنماط المقاطع والنبرات الى أنماط التفاعيل والأقـدام .

والنهضة التاريخية ـ كذلك ـ هى التى خلقت الغناء الفنى ؛ ولكن الغناء الفنى هو الذى انتقل بالأناشيد من نغمات الريف الى نغمات « التوشيح » .

والخطأ الشائع أن الشعر الجديد الذى كتبت به الدرامة فى عصر مارلو قد نقل النظم من التقييد الى الترسل لتيسير التعبير المطـول

فى مواقف التمثيل . ولكن هذا الشعر الذى عرف عندهم باسم النظم الأبيض Blank verse انما كان فى الحقيقة تبـــديلا لوزن التفاعيل بأوزان النظم التى لم يكن لها عروض غير عروض المقـــاطع والنبرات ، وهى أقرب شىء الى الفواصل المنشورة فى اللغة العربية .

عباس محمود العقاد